الأوقاف الصحية في رحلة ابن بطوطة

د. عبد الله بن ناصر السدحان
دكتوراه علم اجتماع.
وكيل وزارة الموارد البشرية والتنمية الاجتماعية المملكة العربية السعودية سابقا
مستشار مجلة (وقف) الصادرة عن مؤسسة ساعي لتطوير الأوقاف في المملكة العر بية السعودية.
نائب رئيس مجلس إدارة مؤسسة (ساعي) لتطوير الأوقاف، التابع لأوقاف سليمان الراجحي.
نائب رئيس مجلس إدارة جمعية دعم الأوقاف وهي أول جمعية مرخصة للأوقاف في المملكة العربية السعودية.

مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد:

لقد لفتت ظاهرة الأوقاف وتنوعها في العالم الإسلامي العديد من المؤرخين وتناقلها الرواة، والكتاب، مشافهة، وتحريراً، ومشاهدة، إلا أن المشاهدة بالعين المجردة أبلغ في الوصف وادق في التصوير، لذا كانت كتب الرحالة خير من يتناول هذا الموضوع باعتبار رؤيتهم لها ومعايشتها، وأحياناً الاستفادة منها، وإذ ذُكر الرحالة، فلا يمكن تجاوز الأبرز منهم وهو مُحَمَّد بن عبد الله بن مُحَمَّد بن إبراهيم اللواتي المشهور بابن بطوطة.

وفي عصرنا الحاضر تزايدت الدعوات إلى ضرورة تنوع الأوقاف وتنويع مصارفها بحث تشمل جميع مناحي الحياة، وتغطي حاجات الفرد ابتداءً، ثُمّ المجتمع بشكل عام، وكثيراً يكون الاستشهاد بالماضي في الحضارة الإسلامية وتنوع أوقافها وتعدد مصارفها، وأنها تجاوزت الضروريات للإنسان إلى الحاجيات وأحياناً التحسينيات، وفي الغالب الأعم أنه إذا وجد أوقاف على المجالات الكمالية أو التحسينية للإنسان، فإن الجوانب الأساسية أو الضرورية قد تجاوز المجتمع فيها مرحلة الوفرة واصبح يتطلع لما بعد الضروريات.

ولقد لاحظ الباحث أنه كثيراً ما يتمّ الاستشهاد برحلة ابن بطوطة في مجال الأوقاف وتميزها في التاريخ الإسلامي، ومن ثَمَ يُستشهد بعض المقتطفات من رحلته، والتي يكون فيها إشارة لوقف مرّ به ابن بطوطة أو استفاد منه أو شاهده، وغالباً ما يكون ذلك بمزيد من الاحتفاء بصورة الوقف الناصعة قديماً.

وفي هذا البحث محاولة لإلقاء الضوء على الأوقاف والمصارف الوقفيّة في المجال الصحي أو الطبي التي صورها ابن بطوطة في كتابه الشهير (تحفة النُظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) والذي دائما ما يُختصر باسم (رحلة ابن بطوطة).

ويهدف البحث إلى الخروج ببعض الاستنتاجات المتعلقة بالأوقاف التي أوردها ابن بطوطة في رحلته، سواء ذكرها أو وصفاً ممن نقل خبرها له، وليس المقصد في هذا البحث أو أحد أهدافه رصد الأوقاف والمصارف الوقفية التي ذكرها ابن بطوطة في رحلته الشهيرة فإن ذلك مما يطول، ولكن سيكون التركيز على المجال الصحي والطبي والعلاجي والاستشفائي، ليتماشى مع موضوع المؤتمر المخصص للجانب الصحي والطبي، وسيكون المعتمد في ذلك كتاب رحلة ابن بطوطة التي حققها مُحَمَّد العريان في مجلد واحد.

وهذا الأسلوب في البحث العلمي ليس بجديد، وهو استقراء ظاهرة معينة أو جوانب معينة من بعض الكُتب التاريخية تحديداً، فعلى سبيل المثال هناك من درس الخدمات الوقفية من خلال كتاب الخطط للمقريزي[1]، وهناك من درس الخدمات الاجتماعية في بغداد خلال فترة معينة من خلال مجموعة من كُتب التاريخ التراجم وكان أبرز تلك الخدمات - بطبيعة الحال - هي الأوقاف[2]، وهناك من درس الأوقاف باعتبارها مصدر دخل للعلماء من خلال كتاب الأنساب للسمعاني[3] ورصد الدارس العديد من العلماء الذين كان مصدر معيشتهم الأوقاف، وهكذا يتكرر الأمر مع رحلة ابن بطوطة حيث ركز بعض الباحثين على زوايا محددة في الرحلة وسلط عليها الضوء شرحاً وتحليلاً كما سوف يرد لاحقاً. وسيكون البحث وفق العناصر الآتية:

أولاً: تعريف بالوقف وتقسيماته.

ثانياً: تعريف بابن بطوطة، ورحلته وكيف كُتبت، وسبب اختيار رحلة ابن بطوطة.

ثالثاً: الأوقاف والمصارف الوقفية في المجال الصحي في رحلة ابن بطوطة.

رابعاً: الخاتمة والاستنتاجات الوقفية المُستفادة من رحلة ابن بطوطة.

والله الموفق

1 الخدمات الوقفية من خلال كتاب الخطط للمقريزي: دراسة تاريخية، أحمد خلف فندي السبعاوي، دار الكتاب الثقافي، عمان، 1438هـ/2017م.

2 الخدمات العامة في بغداد، عبد الحسين مهدي الرحيم، وزارة الثقافة، بغداد، 2013م/1433هـ.

3 سبل عيش العلماء في ضوء كتاب الأنساب للسمعاني، عليان الجالودي، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، الجامعة الأردنية، عمان، المجلد 8، العدد 1، 2013م/1433هـ.

أولاً: تعريف بالوقف وتقسيماته

يُعرف الوقف في اللغة بأنه: الحبس والمنع، ويقال: وقفت الدابة إذا حبستها على مكانها[4]، وفي أوضح تعريف للفقهاء وأيسر عبارة لهم في الوقف وأقربها للمراد الشرعي هو قولهم أن الوقف هو: تحبيس الأصل وتسبيل الثمرة[5].

والأصل في مشروعية الوقف في الإسلام السنة المطهرة والإجماع في الجملة، فيذكر القرطبي في تفسيره: " إنه لا خلاف بين الأمة في تحبيس القناطر والمساجد واختلفوا في غير ذلك"[6]. ولقد اتفق جمهور علماء السلف على جواز الوقف وصحته بناءً على الأدلة الآتية من القرآن الكريم، ففيها حث على فعل الخير والبر والإحسان، وهو ما يرمي إليه الوقف، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ ﴾ (البقرة، الآية: 272).

كما ورد في العديد من الآثار القولية والفعلية عن الرسول صلى الله عليه وسلم ما يؤكد مشروعية الوقف في الفقه الإسلامي، ومن ذلك حديث ابن عمر رضي اللَّه عنهما الذي يقول فيه: (أصاب عمر بخيبر أرضاً، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أصبت أرضاً، لم أصب مالاً قط أنفس منه، فكيف تأمرني به؟ قال: (إِنْ شِئْتَ حَبَسْتَ أَصْلَهَا وَتَصَدَّقْتَ بِهَا، فتصدق عمر: أنه لا يباع أصلها، ولا يوهب، ولا يورث، في الفقراء والقربى، والرقاب، وفي سبيل اللَّه، والضيف، وابن السبيل، لا جناح على من وليها أن يأكل منها بالمعروف، ويطعم صديقاً غير متمول فيه) (متفق عليه)[7].

ويدخل الوقف في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم (إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَه) (رواه مسلم)[8] وقال النووي عند شرح الحديث: إن الوقف هو الصدقة الجارية وفيه دليل لصحة أصل الوقف وعظيم ثوابه.

وللوقف أركان كسائر الالتزامات العقدية التي يبرمها الإنسان، فالأركان المادية هي: وجود شخص واقف، ومال يوقف، وجهة يوقف عليها. والركن الشرعي وهو العقد هو الإيجاب فقط من الواقف بإحدى صيغه الشرعية المعتبرة سواءً الصريحة منها أو الكناية إذا قرنت بقرينة تفيد معناه. وينقسم الوقف إلى ثلاثة أقسام:

أ) وقف أهلي: وهو ما كان على الأولاد والأحفاد والأسباط والأقارب ومن بعدهم من الفقراء ويسمى هذا بالوقف الأهلي أو الذري ويقوم على أساس حبس العين والتصدق بريعها على الواقف نفسه وذريته من بعده أو غيرهم بشروط يحددها الواقف[9].

ب) الوقف الخيري: أو الوقف العام، وهو الذي يقصد الواقف منه صرف ريع الوقف إلى جهات البر التي لا تنقطع سواء كانت معينة كالفقراء والمساكين، أم جهات بر عامة كالمساجد والمدارس والمستشفيات إلى غير ذلك.

ج) الوقف المشترك: وهو مختلط بين الأمرين أو قد يبدأ كونه وقفا أهليا ثم ينتهي به الأمر إلى صيرورته إلى وقف خيري بعد انقطاع من يستفيد منه من ذرية الواقف ومرد ذلك كله شرط الواقف.

ونظام الوقف باعتباره نظاماً خيرياً كما سبق ذكره موجود منذ القدم بصور شتى، ولن ندخل في إشكالية هل كان موجوداً في الحضارات السابقة كما هو الآن، أم أنه كان في صورة أخرى، ومن المؤكد أن نظام الوقف في الإسلام بشكله الحالي يبقى خصوصية إسلامية لا يمكن مقارنته بصور البر في الحضارات أو الشعوب الأخرى، وهذا عائد إلى عدة أمور:

- التعلق الشعبي به وعدم اقتصاره على فئة دون أخرى، فضلا عن امتداد رواقه ومظلته إلى أمور تشف عن حس إنساني رفيع.
- لم ينل الوقف لدى الحضارات الأخرى حقه من الاجتهاد التشريعي التفصيلي على الوجه الذي يصونه، ويحفظ كيانها كما هو في الإسلام.
- عدم اقتصار الوقف على أماكن العبادة كما هو في الأديان السابقة، بل امتد في نفعه إلى عموم أوجه الخير في المجتمع.
- شمول منافع الوقف حتى على غير المسلمين من أهل الذمة، فيجوز أن يقف المسلم على الذمي والمعاهد والمستأمن[10] لما روي أن صفية بنت حيي رضي اللَّه عنها زوج رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم وقفت على أخ لها يهودي. ويُعدُ الوقف على غير المسلمين وقبول الوقف عليهم مظهراً من مظاهر رحابة البعد الإنساني في الثقافة الإسلامية.

لأجل ذلك نرى ذلك الإقبال الكبير من لدن عموم أفراد المجتمع - حكاماً ومحكومين - فقد كان نظام الوقف مفتوحا أمام الجميع ولم يكن مختصا بفئة محددة، ويدل على ذلك كثرة التأليف الفقهي في باب الوقف وهو دليل واقعي على اتساع دور الأوقاف في حياة المجتمع بسبب كثرة الأوقاف ابتداء.

ثانياً: تعريف بابن بطوطة ورحلته وسبب اختيارها

من الغريب أنه لا توجد ترجمة موسعة لابن بطوطة عدا كتابات محدودة جداً قياساً على

4 لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ، ج 9، ص359.

5 المغني، ابن قدامة، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي وعبد الفتاح محمد الحلو، دار عالم الكتب، الرياض، 1417هـ الجزء الثامن، ص184.

6 الجامع لأحكام القرآن المعروف بتفسير القرطبي، أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت، 1425هـ المجلد العاشر، ص 15.

7 (18) صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، دار السلام، الرياض، 1421هـ، كتاب الشروط، باب الشروط في الوقف، حديث رقم 2737. وكذلك (19) صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، دار السلام، الرياض، 1421هـ كتاب الوصية، باب الوقف، حديث رقم 4224. واللفظ للبخاري.

8 صحيح مسلم، مرجع سابق، كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، حديث رقم 4223.

9 الوقف الخيري وتميزه عن الوقف الأهلي، محمّد بن احمد الصالح، في (ندوة الوقف في الشريعة الإسلامية ومجالاته)، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، الرياض، 1423هـ ص 24.

10 لمزيد من التفصيل حول الموضوع انظر بحث: مدى مشروعية الوقف على غير المسلم، عبد الله بن محمد نوري الديرشوي، مجلة أوقاف، الأمانة العامة للأوقاف، الكويت، العدد العاشر، 1427هـ ص13-59. حيث انتهى إلى أنه يجوز الوقف على غير المسلمين عند جمهور أهل العلم سواء أكانوا معينين أم لا إذا كانوا من أهل الذمة، ويلحق بهم المعاهد والمستأمن دون الحربي والمرتد لأن الله أباح البر بغير المسلم ما لم يقاتل المسلمين أو يتحالف مع أعدائهم ويعاون عليهم. كما يجوز الوقف على جهة تخص غير المسلمين عند جمهور العلماء إذا لم تكن هذه الجهة ذات صلة بدينهم، وأما إذا كانت ذات صلة بدينهم فلا، لما في ذلك من إعانتهم على الكفر والمعصية، وهو خلاف ما شُرع الوقف له. وكذلك إذا كان الوقف عاما كأن يُخصص للقرابة، أو الجيران، أو الفقراء، أو أبناء السبيل، وتحققت فيهم تلك الصفة فكانوا من القرابة، أو الجيران أو المساكين كان لهم الحق في ذلك الوقف.

الجهود التي بذلها والسبق الذي حققها في التطواف على عدد كبير من دول العالم، وبكل حال يكفينا هنا بعض المعلومات الأساسية فهو، محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي، أبو عبد الله، ابن بطوطة، وقد ولد ونشأ في طنجة في المغرب العربي وقد عاش بين الفترة (703-779هـ الموافق 1304-1377م)، وقد توفي وعمره (76) عاماً[11].

بدأ رحلته في سنة (725هـ/ 1325م)، حين كان عمره (22) اثنان وعشرون سنة، وكان الهدف الرئيسي من الرحلة هو أداء فريضة الحج وزيارة مكة المكرمة، والمدينة المنورة، وقد سلك الطريق البري عبر تونس وطرابلس، ثم توجه بعد ذلك من القاهرة إلى البحر الأحمر، عبر صعيد مصر ليصل إلى سوريا وزار العراق وجنوب إيران وأذربيجان واليمن ثم عبرها براً، ومن عدن أبحر على طول ساحل شرق أفريقيا، حتى تنزانيا، وزار منطقة الخليج العربي مروراً بالجزيرة العربية وعُمان، وقطع أراضي الأتراك في عِدّة اتجاهات. وأكمل رحلته عبر البحر الأسود إلى شبه جزيرة القرم، ثم إلى شمال القوقاز وإلى ساراي على نهر فولغا السفلي، ثم قام بزيارة إلى القسطنطينية (اسطنبول).

استمر في رحلته باتجاه الهند، وزار مدن سمرقند وبخارى، ووصل دلهي، ثُمّ توجه إلى جزر المالديف، وسيريلانكا، والصين، وسومطرة، ثُمّ كانت عودته وقام بأداء الحج مرة أخرى، وقرر العودة إلى وطنه، ووصل أخيراً إلى فاس، وكان لا يزال هناك دولتان مسلمتان لم يزرهما ابن بطوطة بعد، فشد رحاله وسافر إلى مملكة غرناطة وبعد ذلك بعامين انطلق إلى غرب السودان، وكانت تلك رحلته الأخيرة عبر الصحراء إلى غرب أفريقيا، ومالي، واتصل بكثير من الملوك والأمراء، فمدحهم - وكان ينظم الشعر - واستعان بهباتهم على أسفاره. ثُمّ عاد إلى المغرب، فانقطع إلى السلطان أبي عنان (من ملوك بني مرين) فأقام لديه حتى توفي.

وقد أملاء رحلته على كاتب السلطان أبي عنان المريني الفقيه مُحَمَّد بن جزي الكلبي وقد يرجع ذلك إلى كون ابن بطوطة قد أسن وعجز عن الكتابة، ويقال بأن ابن بطوطة قد ضعف بصره بحيث لم يقو على تدوين رحلته بنفسه فأملاها على كاتب السلطان[12]، فتولى الكاتب ابن جزي بعد ذلك ترتيبها وتهذيبها، وإضافة ما يناسب أبوابها من الأخبار والأشعار، وسماها (تُحفة النُظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار).

وقد نشرت الرحلة في طبعات عدة وأبرزها الطبعة التي أعدها عضو أكاديمية المملكة المغربية عبد الهادي التازي، عام 1997م في خمسة مجلدات، وترجمات الرحلة إلى أكثر من عشرين لغة من اللغات الحيّة[13] وآخرها اللغة الصينية. كما اشتق من الرحلة عشرات الدراسات والبحوث، والمقالات المنشورة في المؤتمرات والمجلات العلمية والصحف. وحفلت الرحلة بالعديد من الثناء وببعض الانتقادات التاريخية أو المنهجية، وليس المجال هنا لذكرها، ولكن تناولها المستمر مدحاً أو ثناءاً وتحليلاً يُنبئ عن مكانتها في ساحة الرحلات الاستكشافية العربية والعالمية.

نُعت ابن بطوطة من أكثر من كاتب وباحث بالإغراق في التصوف، وتبنيه لدرجة دفعته كما يرى بعض الباحثين إلى التجني والتحامل في بعض الأحيان والبعد عن الانصاف[14]، وهذا يفسر تركيزه الشديد على زيارة الزوايا والقبور والمشاهد وقطع المسافات الطويلة أحياناً لأجلها، وتكراره لما يذكر أنها كرامات، يصل في بعضها إلى درجة ادعاء علم الغيب من بعض شيوخ تلك الزوايا[15]، وقصص أخرى كما في الشيخ الذي يستطيع أن يجعل لنفسه لحية كثيفة سوداء أو لحية كثيفة بيضاء أو زوالها بالكلية بصرخات متتالية في مجلس واحد[16].

كما يفسر هذا الميل الصوفي لدى ابن بطوطة عدم تركيزه بشكل كبير على الأوقاف ذات المنحى الاجتماعي أو التعليمي، أو الصحي بالدرجة نفسها التي ركز فيه على الاربطة والزوايا والمشاهد والأضرحة، وتعلقه بروايات ليس لها خطام ولا زمام، كما حدث عند ذكره للرباط الذي بناه الصاحب تاج الدين بن حناء بمصر، إذ كر أن بالرباط " قطعة من قصعة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والميل الذي كان يكتحل به، والدرفش وهو الأشفاء الذي كان يخصف به نعله، ومصحف أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الذي خطه بيده رضي الله عنه"[17].

سبب اختيار رحلة ابن بطوطة:

لقد كان اختيار رحلة ابن بطوطة لرصد الصورة الوقفيةً في العالم الإسلامي لفترة من الزمن تمتد لربع قرن كون هذه الرحلة تتصف بمزايا قد لا تتوافر في غيرها من الرحلات، كما يتصف ابن بطوطة بصفات شخصية جعلت لها هذه الشهرة وهذا الاختيار لهذا الموضوع تحديداً، فمن ذلك على سبيل المثال:

طول فترتها الزمنية، حيث استمرت زمن طويل بمقاييس عصرنا وذلك العصر، حيث بلغ مداها قرابة ربع قرن (27 عاماً) سبعة وعشرين عاماً[18].

اتساع الرقعة المكانية التي شملتها الرحلة، وطول خط المسير الذي سلكه ابن بطوطة، حيث أوصل بعضهم طول خط مسير الرحلة، قرابة (12,000) كيلومتر، وهو يمثل انسياح مكاني واسع، وليس هذا فحسب، بل يذكر عن نفسه أن من عادته ألا يعود على طريق سلكها من قبل[19] رغبة في رؤية الجديد والاطلاع على الغريب.

تنوع وسائل السفر فمنها: البريّة من خلال الدواب والسير على الأقدام، ومنها البحريّة

11 رحلة ابن بطوطة، تحقيق عبد الهادي التازي، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1417هـ/1997م، المجلد الأول، ص 80.

12 الرحالة العظيم ابن بطوطة: شواهد حيّة على صدقه، مُحَمَّد بن ناصر العبودي، دار الثلوثية للنشر والتوزيع، الرياض، 1434هـ، 2013م، ص 6.

13 أدب الرحلات هل سيختفي من الساحة؟، عبد الهادي التازي، ضمن ندوة الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، 1421هـ/2000م، الجزء الأول، ص 22.

14 رحلة ابن بطوطة، تحقيق مُحَمَّد عبد المنعم العريان، مرجع سابق، ص 20.

15 رحلة ابن بطوطة، تحقيق مُحَمَّد عبد المنعم العريان، مرجع سابق، ص 48. وكذلك ص 70.

16 تحفة النُظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (رحلة ابن بطوطة)، تحقيق مُحَمَّد عبد المنعم العريان، دار إحياء العلوم، بيروت، الطبعة الثالثة، 1417هـ/1996م، ص 53.

17 تحفة النُظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (رحلة ابن بطوطة)، مرجع سابق، ص 65.

18 للمقارنة فقط، رحلة ابن جبير وهي الأشهر في الرحلات المغاربية التي سبقت رحلة ابن بطوطة لم تستمر سوى سنتان وبضعة أشهر فقط. انظر: تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار (رحلة ابن جبير)، مُحَمَّد بن أحمد بن جبير الأندلسي، تحقيق: علي كنعان، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، 2008م.

19 تحفة النُظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (رحلة ابن بطوطة)، مرجع سابق، ص 202.

بسفنها الكبيرة نسبياً، ومنها الرحلات النهريّة وقواربها الصغيرة، وهي وسائل تهيئ في تنوعها المرور بجميع الظروف، والمواقف.

عموم وسائل السفر التي استخدمها ابن بطوطة والتي كانت متاحة في عصره تتصف بالمسير البطيء مما يهيئ القدرة على الرصد وعدم المرور السريع على المواقع والمشاهد، فضلاً عن إقامته الطويلة في بعض المناطق أو المدن جعلت قدرته على الرصد كبيرة ووصف المواقع والمشاهد بشكل تفصيلي دقيق [20].

شمول الرحلة الجغرافي لمعظم بلدان العالم الإسلامي من اقصى الغرب إلى اقصى الشرق، والاتجاه شمالاً وجنوباً، لذا لا عجب أن نجده من وصفها بأنها "تكاد تكون دائرة معارف مصغرة لهذا العصر الذي عاش فيه ابن بطوطة"[21].

حين ابتدأ ابن بطوطة الرحلة كان عمره آنذاك اثنان وعشرون عاماً، والإنسان في هذا العمر عادة ما يكون حاد الذهن واسع الخيال، نشيط البدن، متلهف ومتحمس لما هو قادم عليه من أمور الرحلة.

الروح الاجتماعية لابن بطوطة، فهو يتلبس شخصية الباحث الاجتماعي باقتدار، فضلاً عن كونه جريئ ومخالط للناس بمختلف مستوياتهم وفئاتهم فهو حين جليس الملوك والأمراء، وحين آخر قاض ومفتي، وتارة أخرى شيخ فقير صوفي عابد منقطع لخدمة أحد النساك أو العباد [22].

امتلاك ابن بطوطة - أحياناً - لروح الباحث الناقد، فتجده يُذيل بعض قصص ومروياته بعبارة (والله أعلم بصحة ذلك كله) [23]. وكذلك عبارات أخرى مثل: (إن صح هذا)، أو عبارة (والله أعلم) مما يُنبئ عن تشككه في يرويه أحياناً، إما لغرابته، أو يكون مما لم يشاهده فينقل الخبر كما سمعه، وإن كان هذا ليس مطرداً في رحلته فكثيراً ما يذكر هو نفسه المستغرب والمستهجن أو المستحيل، ولكن يبقى أثر للنقد في بعض رواياته.

لهذا وذاك يمكن القول أن هذه الرحلة تتصف بالشمولية، وهي أقرب ما تكون في وقتنا الحاضر بما يوصف بأنه ضمن حقل الدراسة الأنثربولوجية، التي تُعرف بأنها علم دراسة الإنسان طبيعياً واجتماعياً وحضارياً، وعلم الحضارات والمجتمعات البشرية، كما تُطلق على علم دراسة الشعوب وكياناتها الاجتماعية [24].

ثالثاً: الأوقاف في رحلة ابن بطوطة

بداية لابد أن نفرق بين الأوقاف ذاتها التي هي العين الموقوفة، وبين مصارفها، فالوقف كما ذُكر آنفاً قد يكون مُنشأة مثل: المسجد، والمدرسة، أو البيمارستان (المشفى)، أو دارا للأيتام، وهذه غالباً موقوفة ولا يمكن التصرف فيها لأنها خرجت من ملك مالكها الواقف إلى ملك الله عز وجل، وهي غير مُدرة بنفسها، ولا يوجد لها غلة، وتحتاج إلى مصادر مساندة لها لكي تستمر في رسالتها، كان يكون لها ضياع موقوفة عليها، أو مزارع، أو حوانيت، أو دور تُدرُ عليها غلة لتستمر في أداء دورها وتحقيق أهدافها.

وهناك أوقاف تكون مدرة بنفسها، مثل: الدور والبيوت، أو البساتين، أو المزارع، أو الدكاكين، أو المخازن، أو المطاحن فيكون لها غلة سنوية ومصارف محددة يحددها الواقف حين أوقفها، كأن تكون للصرف على الفقراء، والمساكين، أو طلبة العلم، أو الأيتام، أو المرضى، أو عابري السبيل والمسافرين، أو المنقطعين للعبادة كما سنرى في الأوقاف التي وصفها ابن بطوطة.

إن مما لا شك فيه أن وجود مثل هذه المصارف المبتكرة، المصنفة ضمن خانة التحسينيات في حياة المجتمع تُنبئ بأن المجتمع قام بتغطية الحد الأدنى من الضروريات في حياته ولأفراده، وسيتمّ تناول الأوقاف والمصارف وفق تصنيفات رئيسية وبشكل مجمل، ثمّ التوسع قليلاً في ذكر الأوقاف الصحيّة، فالمجال البحثي الزماني والموضوعي للمؤتمر لا يتسع لأكثر من ذلك مع التركيز على بعض الاستنتاجات الوقفية من رحلة ابن بطوطة.

أما الأوقاف التي ذكرها ابن بطوطة وشاهدها، أو استفاد منها، أو ذكرت له في رحلته، فيمكن تصنيفها في المجالات الرئيسة الآتية:

أ) الأوقاف الدينية التعبدية.
ب) الأوقاف التعليمية والثقافية.
ج) الأوقاف الاجتماعية.
د) الأوقاف البيئية والحيوانية.
ه) الأوقاف الخدمية.
و) الأوقاف الصحيّة.

وسيكون التركيز في هذا البحث على الأوقاف الصحيّة الذي ورد ذكرها في الرحلة ومحاولة رصدها، واستعراض ما لم يذكرها ابن بطوطة من تلك الأوقاف الصحيّة على النحو الآتي:

الأوقاف الصحية:

لا يخفى إن الشكل الاظهر في الاوقاف الصحيّة هي البيمارستانات، وبيمارستان لفظة فارسية الأصل مُركّبة من كلمة (بيمار) وتعني مريض أو مُصاب، و(ستان) وتأتي بمعنى دار. وبهذا يكون معنى "بيمارستان" "دار المرضى"، واختُصِرَت فيما بعد في الاستعمال فأصبحت تُلفَظ "مارستان". فاصبح هذا المصلح تُعرف به المستشفيات في العصور الإسلامية.

لقد ذكر ابن بطوطة عدد من البيمارستانات في رحلته، وهناك بيمارستانات أخرى لم يذكرها، كما أن هناك بيمارستانات ذكرها عرضاً ولم يتوسع فيها.

لعل من أبرز ما شاهده ابن بطوطة من الأوقاف الصحيّة هو البيمارستان النوري في دمشق، فقد ذكر سبب نشأته في قصة لها ارتباط بالجانب الصوفي وكيف أن الملك نور الدين زنكي أنشاء البيمارستان بناءً على نصيحة من أبي يعقوب يوسف الذي يزعمون أنه من ملوك المغرب، وخرج من مُلكه ليسيح في الأرض، والقصة طويلة، والشاهد منها ذكر البيمارستان النوري الذي وصفه ابن بطوطة بأنه "ليس في المعمور

20 من الشواهد في هذا الأمر أن الباحث كان في زيارة لمدينة صلالة في سلطنة عُمان، في عام 1441هـ/2019م، وقد ذكر له المرشد السياحي أنهم تعرفوا على موقع أحد المساجد الرئيسية في البلدة القديمة من صلالة والتي يعملون على ترميمها الآن.. تعرفوا عليه وعلى موقعه وتفاصيله من خلال وصف ابن بطوطة له في رحلته.

21 تحفة النُظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (رحلة ابن بطوطة)، مرجع سابق، ص 9.

22 رحلة ابن بطوطة، تحقيق عبد الهادي التازي، مرجع سابق، المجلد الأول، ص 146.

23 تحفة النُظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (رحلة ابن بطوطة)، مرجع سابق، ص 229.

24 مدخل إلى علم الإنسان (الأنثروبولوجيا)، عيسى الشماس، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2004م، ص 13.

مثله"[25]، ولم يتجاوز في وصف تلك العبارة، ولم يشر إلى الأوقاف الموقوفة عليه.

كما أشار ابن بطوطة إلى بيمارستان آخر في مدينة حلب لكن لم يتوسع في ذكره، وهو البيمارستان المنسوب إلى نور الدين زنكي ويقال أن نور الدين زنكي كان مجدداً له وليس هو من بناه، وبكل حال فقد كانت إشارة ابن بطوطة له محدودة جداً، على الرغم من وجود أوقاف كبيرة عليه [26].

وذكر ابن بطوطة البيمارستان المنصوري في القاهرة، وقال عنه: "يعجز الواصف عن محاسنه، وقد أعد فيه من المرافق والأدوية ما لا يحصر"[27]. واكتفى بذلك على الرغم من أن مثل هذه المنشاة لا يمكن أن يقوم لها قائمة إلا بوجود أوقاف كثيرةً عليها، ولكن لم يكن ثمة إشارة من ابن بطوطة لهذه الأوقاف الموقوفة عليه.

كما ذكر ابن بطوطة حين زيارته لبغداد ومحلاتها، محلة باب البصرة وبها جامع الخليفة المنصور والمارستان فيما بين محلة باب البصرة ومحلة الشارع على دجلة، وهو قصر كبير خرب وبقيت من الآثار"[28].

كما ذكر عرضاً بيمارستان موجود في كل من: الموصل، ونصيبين، وخوارزم، فيذكر أنه فيها بيمارستان دون مزيد من التفصل أو الشرح.

والغريب أن ابن بطوطة لم يذكر بيمارستانات أخرى كبيرة جداً كانت موجودة حين زار بعض المدن، بغض النظر عن واقعها من حيث الحجم، أو التقدم الطبي، ومن ذلك على سبيل المثال: البيمارستان المستنصري في مكة المكرمة، والبيمارستان الصالحي في المدينة المنورة، والبيمارستان القيمري في دمشق، والبيمارستان العضدي، والتتشي، وبيمارستان المدرسة المستنصرية في بغداد، والبيمارستان الناصري أو الصلاحي في القاهرة، وبيمارستان في حماة، وبيمارستان في القدس، وفي عكا، وغزة.

ولعل اللافت للنظر أنه على الرغم من أن ابن بطوطة قد مرض في رحلته ثلاثا مرات مرضاً شديداً كما يذكر هو عن حاله، كما أن بعض أصحابه مرضوا كذلك، فقد ذكر أربع مرات أن بعض أصحابه مرضوا، لكنه لم يشر الى أنه زار هذه البيمارستانات، أو استفاد منها على الرغم من المرض الذي أصابه كان شديداً فقد ذكر أنه مرض في منصرفه من الكوفة [29]، واستمر المرض معه حتى وصل إلى مكة المكرمة فيقول في ذلك: "وأصابني عند خروجنا من الكوفة إسهال فكانوا ينزلونني من أعلى المحمل مرات كثيرة في اليوم، والأمير يتفقد حالي ويوصي بي ولم أزل مريضا حتى وصلت مكة حرم الله تعالى زادها الله شرفا وتعظيما، وطفت بالبيت الحرام كرمه الله تعالى طواف القدوم، وكنت ضعيفا، بحيث أؤدي المكتوبة قاعدا فطفت وسعيت بين الصفا والمروة راكبا على فرس الأمير، ووقفنا تلك السنة يوم الإثنين فلما نزلنا منى أخذت في الراحة والاستقلال من مرضي" [30].

فعلى الرغم من اشتداد المرض، إذ بلغ الأمر به أن يصلي الصلاة المكتوبة وهو قاعداً وهي ولا شك مرحلة متقدمة من استفحال المرض بابن بطوطة، ولكن لم يذكر أنه ذهب للعلاج في البيمارستان في الكوفة، أو في مكة المكرمة، وهذا غريب بالفعل.

رابعاً: الخاتمة والاستنتاجات

في ختام هذه العجالة عن صورة الأوقاف الصحيّة في رحلة ابن بطوطة التي استمرت أكثر من ربع قرن، يمكن أن نوجز بعض الاستنتاجات التي تتناسب وحجم هذا البحث المقدم للمؤتمر الموقر، ومن ذلك:

هناك خلط في الرحلة بين الأوقاف والمصارف وغالباً ما يكون التركيز على ذكر المصارف دون ذكر الأوقاف المدرة نفسها، وهذا كثير جداً في معظم الأوقاف التي ذكرها وليس الأوقاف الصحيّة فحسب، فعلى سبيل المثال حين الحديث عن زيارته لدمشق يذكر من مشاهدها مسجد الأقدام في قبلي دمشق وأنه مسجد عظيم وله أوقاف كثيرة[31]، دونما ذكر ماهية هذه الأوقاف ونوعيتها ومداخيلها، فتركيزه على المشهد أكثر منه على الأوقاف وطبيعتها، وهو منهج شبه ثابت عند ابن بطوطة، حيث يذكر المصارف الوقفية دون حديث الأوقاف المدرة عليها، يتكرر الأمر عند مروره على إحدى المدن الصينية التي يسكنها المسلمون أن فيها المسجد الجامع والزاوية العثمانية وأنها حسنة العمارة وللجامع والزاوية أوقافاً عظيمة[32]، دون أدنى إشارة لهذه الأوقاف العظيمة، ويذكر عن إحدى الزوايا أنها عظيمة، ولها أوقاف ضخمة يطعم منها الوارد والصادر[33].

لقد أطال ابن بطوطة النفس حين الحديث عن الأوقاف الدينية والتعبدية ذات الطابع الصوفي، وما يتعلق بها من الأربطة، والزوايا، الخوانق، وهذه الأوقاف هي أكثر ما تعرض له ابن بطوطة من حيث الإشارة والذكر والتعداد والوصف، فضلاً عن كونه استفاد منه هذه المنشآت وتحديداً الأربطة أيما استفادة بالإقامة فيها ، أو المبيت، وقد بلغ عدد الزوايا التي ذكرها ابن بطوطة في رحلته قرابة (103) مائة وثلاث زاوية، و (13) ثلاثة عشر رباطا، و(5) خمس خانقات [34]، وكثيراً

25 تحفة النُظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (رحلة ابن بطوطة)، مرجع سابق، ص 82. وهذا البيمارستان بناه نور الدين زنكي منتصف القرن السادس، وأوقف عليه الأوقاف الكثيرة، واستمر العمل فيه إلى عام (1217هـ/ 1802م). وللاستزادة عنه، يمكن الرجوع إلى كتاب: تاريخ البيمارستانات في الإسلام، أحمد عيسى، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2012م، ص 131 - 141.

26 تاريخ البيمارستانات في الإسلام، مرجع سابق، ص 142.

27 حفة النُظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (رحلة ابن بطوطة)، مرجع سابق، ص 56.

28 تحفة النُظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (رحلة ابن بطوطة)، مرجع سابق، ص 234.

29 تحفة النُظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (رحلة ابن بطوطة)، مرجع سابق، ص 249.

30 تحفة النُظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (رحلة ابن بطوطة)، مرجع سابق، ص 249.

31 تحفة النُظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (رحلة ابن بطوطة)، مرجع سابق، ص 115.

32 تحفة النُظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (رحلة ابن بطوطة)، مرجع سابق، ص 651.

33 تحفة النُظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (رحلة ابن بطوطة)، مرجع سابق، ص 375.

34 تتعدد تعاريف هذه المنشآت، ويجمعها أنها مكان مخصص للعبادة ويأوي إليه الغرباء وأكثر من استفاد منه الصوفية وأتباعها، مع ملاحظة تغير وظيفتها مع مرور الوقت، فالرُبط وهي الأماكن التي تمّ إعدادها على الثغور للمجاهدين قد تحولت مع الوقت هي والخانقات والتكايا والزوايا إلى أماكن للمتفرغين للعبادة، ومما يؤكد تحول هذه الأربطة عن وظيفتها الأساس التي بدأت بها هو وجودها في أماكن بعيدة عن الثغور الإسلامية التي كانت المهد الأول لظهورها، وهذا التحول التدريجي في دور الرُبط أدى بها أن غدت مأوى للغرباء والعجزة والمنقطعين وبعض الصوفية وهم الأظهر، وأصبحت تتركز حول القبور، وقد ذكر ابن بطوطة كثير من الزوايا المشيدة عند القبور أو عليها. للاستزادة، انظر: الأوقاف والمجتمع، عبد الله بن ناصر السدحان، مؤسسة ساعي لتطوير الأوقاف، الرياض، 1439هـ/2018م، ص 54 وما بعدها. وكذلك: الحياة العلمية في القدس في القرن الثامن الهجري، علي منصور نصر شهاب، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، الرسالة169، الحولية الثانية والعشرون، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، الكويت، 2001م، ص 30.

ما كان يتقصدها ويبحث عنها ويقطع المسافات البعيدة للوصول إلى زاوية من الزوايا لرؤية شيخ متصوف فيها.

يلاحظ كثرة الأوقاف ذات الصفة الدينية مثل الاربطة والزوايا والخانقات، والأسبلة، مقابل قلة الأوقاف ذات الخدمات العامة مثل البيمارستانات، والحمامات، والخانات، والبيئية والحيوانية، وقد يكون هذا عائد إلى اعتبار تأسيسها ووقفها من المسائل الدنيوية التي لم تكن للدولة فيها مسؤولية دينية، مما جعل وجودها يعتمد على الرغبة الشخصية لأولي الأمر أو غيرهم من سائر الأفراد[35]، ولا يخفى سبب آخر وهو أن التكلفة العالية لتشغيل واستمرار البيمارستان ، أو المدارس سبب آخر لتقال هذا النوع من الأوقاف واستمرار وجودها.

هذه الكثرة للأوقاف ذات الصفة الدينية كالأربطة والزوايا والخانقات التي ذكرها ابن بطوطة في رحلته، ليس بالضرورة أنها تمثل واقع الأوقاف ومصارفها في العالم الإسلامي، فقد يكون سبب كثرتها في الرحلة اهتمام ابن بطوطة نفسه بها أكثر من غيرها، كما أن توجهه الصوفي وتعلقه بالكرامات والاحتفاء بها هو سبب من أسباب ورود هذه الكثرة العددية للأوقاف ذات الصفة الدينية في الرحلة.

فات على ابن بطوطة الكثير من الأوقاف المنتشرة على امتداد العالم الإسلامي، فهناك الاعداد الكثيرة جداً من المدارس، والمحاضر، والبيمارستانات، والخانات، ولكن لعل العذر مُسدى لابن بطوطة أن رحلته لم تكن لرصد الأوقاف، بقدر ما هي وصف لما يشاهده، ولكن طغت على مشاهداته اهتماماته ونزعته الصوفية بما جعل جُل تركيزه على الأربطة والزوايا والاضرحة، وما فيها، وما يمارس فيها من طقوس وتراتيب مشيخية وصوفية طرائقية.

35 الخدمات العامة في بغداد، مرجع سابق، ص 295.

على الرغم من مرض ابن بطوطة عدة مرات هو ورفقائه، ولكن لم يدخل، أو يستفد من الأوقاف الصحيّة الموجودة في المدن التي زارها، ومن المؤكد انه لو حصل ذلك لقدم تفصيلاً ممتعاً – كما هو أسلوبه - في وصف تلك البيمارستانات وتراتيبها الطبية، والأطباء، والأدوية والاعشاب المستخدمة وغيرها من الأساليب العلاجية التي كانت تستخدم فيها، وجرى ذكرها في مصادر أخرى.

الحاجة ماسة إلى اعداد بحث يدرس جميع الأوقاف التي ذكرها ابن بطوطة في رحلته لتكوين صورة أشمل عن الأوقاف في العالم الإسلامي وتطورها وتحولاتها خلال تلك الفترة وما قبلها وبعدها.

من المفيد دراسة الأوقاف الصحيّة من خلال كتابات رحالة آخرون لتكوين صورة أكثر وضوحاً عنها في العالم الإسلامي كما شاهدها الرحالة ووصفوها بما يمتلكونه من حس توصيفي يتفوقون فيه على غيرهم، ومن ذلك على سبيل المثال رحلة ابن جبير، فقد تحدث عن الأوقاف الصحيّة خصوصاً بشكل أكثر إسهاباً من ابن بطوطة على الرغم من قصر رحلته مقارنة برحلة ابن بطوطة.

المراجع

1. أدب الرحلات هل سيختفي من الساحة؟، عبد الهادي التازي، ضمن ندوة الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، 1421ه/2000م.
2. الأوقاف والمجتمع، عبد الله بن ناصر السدحان، مؤسسة ساعي لدراسات الأوقاف، الرياض، 1439هـ/ 2019م.
3. الجامع لأحكام القرآن المعروف بتفسير القرطبي، أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت، 1425هـ.
4. الحياة العلمية في القدس في القرن الثامن الهجري، علي منصور نصر شهاب، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، الرسالة169، الحولية الثانية والعشرون، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، الكويت، 2001م.
5. الخدمات العامة في بغداد، عبد الحسين مهدي الرحيم، وزارة الثقافة، بغداد، 1433/2013م.
6. الخدمات الوقفية من خلال كتاب الخطط للمقريزي: دراسة تاريخية، أحمد خلف فندي السبعاوي، دار الكتاب الثقافي، عمان، 1438ه/2017م.
7. الرحالة العظيم ابن بطوطة: شواهد حيّة على صدقه، مُحَمَّد بن ناصر العبودي، دار الثلوثية للنشر والتوزيع، الرياض، 1434ه، 2013م.
8. المعجم الكبير، الطبراني، تحقيق: حمدي السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة.
9. المغني، ابن قدامة، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي وعبد الفتاح محمد الحلو، دار عالم الكتب، الرياض، 1417هـ.
10. الوقف الخيري وتميزه عن الوقف الأهلي، محمّد بن احمد الصالح، في (ندوة الوقف في الشريعة الإسلامية ومجالاته)، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، الرياض، 1423هـ.
11. الوقف والحياة الاجتماعية في مدينة دمشق، مبارك عشوي جازع، الأمانة العامة للأوقاف، الكويت، 1438هـ/ 2018م.
12. أوقاف الرعاية الصحيّة في المجتمع المسلم، أحمد عوف عبد الرحمن، كتاب الأمة، العدد 119، الدوحة، 1428هـ/2008م.
13. تاريخ البيمارستانات في الإسلام، أحمد عيسى، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 1432هـ/ 2012م.
14. تحفة النُظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار رحلة ابن بطوطة، تحقيق مُحَمَّد عبد المنعم العريان، دار إحياء العلوم، بيروت، الطبعة الثالثة، 1417ه/1996م.
15. تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار (رحلة ابن جبير)، مُحَمَّد بن أحمد بن جبير الأندلسي، تحقيق: علي كنعان، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، 2008م.
16. رحلة ابن بطوطة، تحقيق عبد الهادي التازي، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1417ه/1997م.
17. سبل عيش العلماء في ضوء كتاب الأنساب للسمعاني، عليان الجالودي، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، الجامعة الأردنية، عمان، المجلد 8، العدد 1، 2013م/1433ه.
18. صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، دار السلام، الرياض، 1421هـ.
19. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، دار السلام، الرياض، 1421هـ.
20. لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.
21. مدارس دمشق ودورها الثقافي، من خلال وصف ابن بطوطة، حسن حلمي العسيري، مجلة المؤرخ العربي، العدد 28، 2020م.
22. مدخل إلى علم الإنسان (الأنثروبولوجيا)، عيسى الشماس، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2004م.
23. مدى مشروعية الوقف على غير المسلم، عبد الله بن محمد نوري الديرشوي، مجلة أوقاف، الأمانة العامة للأوقاف، الكويت، العدد العاشر، 1427هـ.